الغربة والحنين في أدب العراق القديم

أ.م.د. سعدون عبدالهادي برغش الأمير

كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة واسط

الملخص:

تعالج الدراسة موضوع الغربة والحنين في أدب العراق القديم، والظاهرة الأولى تعتري الإنسان تبعا لظروف معينة، وقد تكون الغربة مكانية تتمثل بالابتعاد عن الأسرة والوطن تبعا لظروف قد تكون خارجة عن ارادة الانسان كالأسر أو طلبا للرزق أو غيرها من الظروف. وقد تكون نفسية وهذه أكثر عمقا وحدةً من الغربة المكانية، فهي شعور بالعزلة والانفصال وفقدان الأمان والطمأنينة. أما الحنين فهو أكثر توكيدا من الغربة، اذ انها اكثر اتساعا فلا يكاد انسان لا يحنُّ الى عزيز فارقة أو مكان عاش فيه ذكرى طيبة أو ماضٍ جميل عاشه. وسنحاول في هذ الدراسة الوقوف على هاتين المفردتين وما يتعلق بمشاعر العراقي القديم من خلاله نتاجه الأدبي الذي خلفه لنا والذي عكس تجربته الانسانية العميقة والمعقدة بلغة لا تخلو من الرمز والتورية وجمالية المفردة.

الكللمات المفتاحية: أدب، غربة، حنين، الغربة النفسية، الخراب، ملحمة جلجامش، انكيدو

Exile and Nostalgia in Ancient Iraqi Literature

Abstract

The study deals with the subject of alienation and nostalgia in ancient Iraqi literature. The first affects a person according to certain circumstances. Alienation may be spatial, represented by being away from family and homeland according to circumstances that may be beyond a person's control, such as captivity, seeking a livelihood, or other circumstances. It may also be psychological, which is deeper and more intense than spatial alienation, as it is a feeling of isolation, separation, and loss of security and reassurance. As for nostalgia, it is more emphatic than alienation, as it is more extensive. There is hardly a person who does not yearn for a dear departed person, a place where he lived a good memory, a beautiful past he lived, or his country in its loftiness and glory. In this study, we will try to stand on these two terms and what is related to the feelings of the ancient Iraqi through his literary production that he left for us, which reflected his deep and complex human

experience in a language that is not devoid of symbolism, allusion, and the beauty of the term.

Keywords: Literature, Alienation, Nostalgia, Psychological Alienation, Destruction, Epic of Gilgamesh, Enkidu

المقدمة

تجتاح النفس الانسانية الكثير من المشاعر وفقا للظروف المحيطة به والمؤثرات التي تقع عليه، وهذه المشاعر قد تكون حزنا أو فرحا، والعراقي القديم ليس استثناءً بهذا الخصوص، وقد عكست كتاباته الأدبية تلك المشاعر الجياشة عن الغربة التي شعر بها والحنين للأسرة وللمدينة والمنزل وغيرها.

تقوم مشكلة الدراسة على محاولة معرفة الأسباب والظروف التي أدت الى شعور العراقي القديم بمشاعر الغربة والحنين، ومدى تأثيرها فيه.

تفترض الدراسة بأن الأديب العراقي القديم عالج ظاهرتي الغربة والحنين بتقنية وإحساس عاليين باعتباره لسان الأمة التي ينتمي اليها، ويشعر بمعاناتها وبأفراحها وأتراحها، لذا فهذه المعالجة جاءت صادقة ومعبرة عن معاناة حقيقية. ولم يوضع (أي الأدب) لأغراض أدبية صرفة.

تكمن أهمية الدراسة في الوقوق على الشواهد الأدبية التي وثقت غربة العراقي القديم وحنينه لكل ما يشده لتفاصيل الحياة والعيش الكريم، وبيان أهميتها كونها عامل مؤثر في فهمنا لشعور العراقي القديم بالغربة والحنين، ومحاولته التغلب على غربته واستئناف حياته بصورة أفضل.

اعتمدنا في هذه الدراسة المنهج التحليلي للوقوف على ظاهرتي الغربة والحنين في الأدب العراقي القديم فضلا عن المنهج الوصفي لوصف مشاعر العراقي القديم بخصوص الظاهرتين كما جاءت في النصوص الأدبية.

المحور الأول: الغربة في أدب العراق القديم

الغربة لغة: يذكر ابن منظور في لسان العرب معنى (غرب) (غ ر ب) أن الغَربْ: الذهاب والتنحي عن الناس، وغَرُبَ عنه يَغْرُبُ غرباً، وغَرّب، وأَغْرَبَ، وأَغْرَبَهُ، نحّاه، والغُرْبة والغَرْب: البعد والنوى، ويقال: أغربته وغربته إذا نحيته وأبعدته، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر بتغريب الزاني إذا لم يحصن بعدها وهو نفيه عن البلاد. ونوى غربه: بعيدة، وغربة النوى. ونقول دارهم غربة:

أي نائية. والنوى: المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك. وشأو مُغرِّب، ومُغَرَّب، بفتح الراء: بعيد. والتغريب: النفي عن البلد والتغرب: البعد، وفي الحديث: أن رجلاً قال له: إن امرأتي لا ترد يد لامس، قال غَرّبها، أي أبعدها، يريد الطلاق .والغُرْبَةُ والغُرْب: النزوح عن الوطن (ابن منظور، لسان العرب، صفحة ١٣١).

الغربة اصطلاحا: تم تداول ظاهرة الغربة ومفهومها بدلالات مختلفة ومعان تتباين فيما بينها، حسب الأحوال، إلا أن تلك التنوعات يمكن ردها إلى أساس مؤداه: أن الغربة تتمثل في الشعور الذي يمكن أن يشعره الإنسان عندما يغادر مسقط رأسه أو موطنه إلى مكان آخر، أو الشعور الذي يراود الفرد حين يضطر للانفصال أو النزوح عن مجتمعه (زيدان ع.، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، صفحة ٧).

يمكن لنا أن نحدد بعض العوامل التي وقفت وراء شعور العراقي القديم بشعور الغربة، واجتياح نفسه مشاعر الحنين الى موطنه وكل ما يتصل بحياته التي كان يعيشها مع أهله وأحبته وأبناء مدينته، وما كان يعتمر نفسه من الشعور بالرضا والطمأنينة والإحساس بالأمان على الضد من عيشه بعيدا عن مدينته وما ألفه فيها، وعن أقرانه و كل ما يتصل بحياته السابقة. والملاحظ أن العراقي القديم لم يكن، على الأقل وفقا لما جاء في النصوص الأدبية، ميالا الى الغربة الطوعية، بمعنى أنه لم يكن راغبا بالابتعاد عن مدينته بدون وجود سبب خارج عن ارادته، بل أن الاسباب القاهرة هي التي جعلته في موضع الغريب الذي يحنُّ الى الأهل والديار.

لعل من أهم عوامل غربة العراقي القديم تتمثل بالآتي:

أولا– الغزو الأجنبي: الذي دائما ما كان العراق القديم يتعرض له، فتدمر مدنه وتحرق معابدها المقدسة، ويقتل من يقتل من أبنائها، وتأسر آلهتها، ويسبى سكانها ويحملون الى بلد غريب رغما عنهم؛ وهنا تنتاب العراقي القديم مشاعر جياشة تُسهم في غربته النفسية والروحية فضلا عن غربة المكان. وقد بينت لنا الكثير من النصوص الأدبية المخاطر التي كانت تحيق بالعراق القديم خصوصا من المناطق الجبلية في الجهة الشرقية والشمالية الشرقية، فعلى سبيل المثال تتحدث اسطورة انانا وجبل ايبخ (Ebiḫ)[1] عن المتاعب التي سببها (كور).

" سلط الرعب على دار الآلهة الشامخ

وأدخل الخوف الى مسكن (الانوناكي)

لقد ملأ الأرض فزعا" (كريمر ص.، ١٩٧١، صفحة ١٣٠).

ثانيا– العامل الطبيعي: وهذا العامل يرتبط في جزء منه بالعامل الأول ، اذ ان نقل السكان الى مدن وأماكن بعيدة عن مدنهم تختلف من حيث طبوغرافية الأرض، وكل ما يتعلق بتفاصيل المكان جعلت العرافي القديم يشعر بالغربة:

" بناتي وأبنائي حقا.. حملوا بعيدا، يا حسرتاه على أهلي، سأقول.

يا لحزني، بناتي في مدينة غريبة يَحملن رايات غريبة" (الأسود، ٢٠٠٨، صفحة ٤٩)

كما أن العراقي القديم شعر بضغط هذا العامل عليه جراء الكوارث الطبيعية التي شهدتها أرضه، وعدم ملائمة موسم الفيضان مع متطلبات الدورة الزراعية؛ فمن المعروف أن موسم الفيضان يكون في الأشهر التي ينضج فيه الحاصل وموسم الحصاد مما جعله تحت ضغط نفسي، فهو واقع تحت رحمة الطبيعة التي قد تأتي بما لا يحمد عقباه فتذهب جهوده لموسم كامل أدراج الرياح.

" والفيضان الواثب الذي لا يقوى أحد على مقاومته،

والذي يهز السماء وينزل الرجفة بالأرض،

يلف الأم وطفلها في غطاء مريع،

ويحطم يانع الخضرة في حقول القصب

ويغرق الحصاد أبان نضجه" (جاكبسون، ط٢، ١٩٨٠ ، صفحة ١٤٧).

ونقرأ في قصة الطوفان (اتراخاسيس) كيف أن الآلهة، وتحديدا هنا الإله انليل، غير رحيمة بالبشر في كثير من الأحيان، وكيف أنه سلط عليهم مختلف الكوارث الطبيعية من الطاعون ثم الجفاف وبعد ذلك أغرقهم بالطوفان. وبالتأكيد كل هذه الكوارث تركت في نفس العراقي القديم شعور بالقلق وعدم الطمأنينة، وبالنتيجة الشعور بالغربة النفسية والروحية، فنقرأ:

" لم يكد يمر ألف ومائتا سنة،

حتى امتدت البلاد المأهولة وتكاثرت الشعوب

وكانت (أرض البشر) تخور مثل الثور،

وبالضجة التي كانوا يحدثونها، كان الإله مضرباً.

(سمع انليل) صراخهم

(وقال) للآلهة العظام:

ان ضجة البشرية (أثقل عليّ من أن تطاق)

(الضجة التي يحدثونها) تحرمني من نومي،

فليكن (طاعون) (ليسكتهم) (لابات، ١٩٨٨، صفحة ٢٥).

نجح (اتراخاسيس) في انقاذ البشرية من هذا الوباء لكن بعد مرور الف ومائتا سنة تكاثر البشر من جديد ليسلط عليهم انليل الجفاف والقحط بغية افنائهم طلبا لراحته والآلهة الأخرى بعيدا عن مراعاة أي اعتبار للبشر.

" اقطعوا عن الناس كل اسباب المعيشة

لتصبح النباتات نادرة لسدّ جوعهم،

وليحبس ادد أمطاره،

ولا يصعد المد من اسفل المياه الجوفية،

لتهب الريح فتجفف الأرض،

لتتراكم السحب دون أن تمطر قطرة

لينقص الحقل من غلته

لتحبس آلهة الحصاد صدرها في كل مكان

ولا يكن من بعد أيّ فرج للبشر" (لابات، ١٩٨٨، صفحة ٢٦).

وبعد أن نجت البشرية من الجفاف جاءت الكارثة المتمثلة بالطوفان التي أغرقت البشر، ولم يكتب النجاة للبشرية من هذه الكارثة لولا حكمة الإله ايا (انكي) الذي عزم على مساعدة البشر وأشار على بطل الطوفان ببناء الفلك لكي ينقذ من على الأرض من هول الكارثة:

" هاج الطوفان...

ومرَّ عنفه مثل حرب على البشر:

لم يكن بوسع الواحد أن يؤي الآخر،

وما كانوا يُعرَفون في هذه الابادة.

كان (الطوفان) يخور مثل ثور

والريح (تزمجر مثل) نسر هادر،

وكانت الظلمات (كثيفة)، ولم يكن من شمس بعد." (لابات، ١٩٨٨، صفحة ٣١).

ثالثا– العامل الاجتماعي

ان أسر أبناء المدن ونقلهم الى مناطق غريبة عنهم كان يعني بالضرورة العيش في مناطق تختلف عنهم ليس فقط من الناحية الطبيعية بل من الناحية الاجتماعية أيضاً؛ فاختلاف العادات والتقاليد وأسلوب العيش كل هذا جعلهم يشعرون بالغربة.

" العيش في مدينة غريبة، أمر تعس...

العيش في معبد غريب، أمر تعس..." (الأسود، ٢٠٠٨، صفحة ٩٥)

بل يمكننا الوقوف على عدم تقبل العراقي القديم للغزاة من خلال شعوره بالغربة وهو في مدينته بسبب وجود الغزاة فيها، واحتلالهم لمدينته، واختلاف نمط العيش لهؤلاء الاغراب عن نمط عيشه. فوجودهم عنوة في مدينته هو الذي سبب له هذا الشعور بالغربة.

" آه انت يا ننكال[٢]، التي هلكت بلادها، اجعلي قلبك كالماء.

بعد أن دمرت مدينتك، الآن كيف أنت؟

المدينة أصبحت مدينة أجنبية، الآن كيف انت موجودة؟...

أغنيتك تحولت الى نحيب...

... الموسيقى تحولت الى مرثية...

مدينة اور كطفل زقاق مدمر يبحث عن مكان امامكِ.

آجر البيت الصالح يبكي كمخلوق آدمي" (الأسود، ٢٠٠٨، صفحة ٥٠).

وهنا نجد أن الغربة لا تقتصر على الشعور بغربة المكان، فلا المعبد الذي كان يؤمن له الطمأنينة الروحية والسكينة، ولا اللغة التي يتحدث بها آسروه هي لغته التي تُشعره بالاندماج مع محيطه قبل أن يغزوه العدو، لذا فالغربة هنا أبعد من غربة المكان فهي شعور بالانفصال عن البلد والمدينة والأحبة ورفاهية العيش الذي كان يتمتع به العراقي القديم في مدينته التي كان تعيش الرخاء والسكينة في ظل رعاية الآلهة لها.

ان المشاعر الانسانية الطافحة بالشعور بالغربة نجدها فيما عكسه الأديب العراقي القديم على لسان الآلهة، التي هي في حقيقتها مشاعره اللاهبة التي تفجرت بسبب احساسه بالبعد القسري عن مدينته التي عاش فيها منذ نعومة أظفاره. لذا فهو ينقل عن الإلهة ننكال (زوجة إله القمر ننا) شعورها بالغربة والخوف بسبب الهجوم العيلامي، الذي يرمز اليه بالعاصفة، على مدينتها وتدميرها، وهي التي عاشت فيها هانئة مطمئنة، فينقل لنا الشاعر مشاعر الإلهة بالقول:

" أنا شخصيا، أمام تلك الليلة بتّ أرتجف.

أمام عنف تلك الليلة

حرّمت على نفسي الخروج...

أمام تلك العاصفة الساحقة، على فراش

نومي، على فراش نوم، لم يُتح

لي خداع نفسي.

أمام تلك العاصفة الساحقة، طمأنينة فراش

نومي، طمأنينة فراش نومي

لم تتيسر لي" (الشواف، ١٩٩٧، صفحة ٣٩٦).

ويتعزز الألم والغربة بسبب شعورها بالإحباط من عدم استجابة الآلهة العظام لتوسلاتها بعدم تدمير المدينة، ومحاولتها بكل السبل تجنيب شعبها مرارة المأساة بقتل الأحبة وأسر آخرين، ولتدمير أماكن العبادة المقدسة، واختلال النظام فضلا عن المجاعة التي أضرت بشعب اور أيّما ضرر. ويزداد الشعور بالغربة عندما أُبعدت عن مدينتها بقرار من الآلهة.

" وأمام (آن)، سكبت دموعي

وأمام الإله مو أولّيل،[٣] أطلقت

شخصيا تفجعب:

"" يجب ألاّ تهدم مدينتي" قلت لهم...

أصدروا قرارهم بتدمير المدينة،

بتدمير اور أصدروا قرارهم

ولشعب اور قرروا الإبادة وبما أنني أبلغتهم، كل ما أمكن لفمي قوله،

أنا، أبعدوني عن مدينتي

وأبعدوا مدينتي عني" (الشواف، ١٩٩٧، صفحة ٤٠٠).

وفي مقطع آخر من المرثية نقف على حرارة ألم فراق معبدها ومدينتها، ولوعة الفراق الذي تشعر به الإلهة جراء ذلك.

" **الأم،...، عن مدينتها،**

مثل عدوة أُبعدت

هي السيدة أطلقت بملء صوتها

رثاءها المتفجع على معبدها المدمر.

الأميرة، على مقامها المخرب في اور

أطلقت تفجعها المرير" (الشواف، ١٩٩٧، صفحة ٤٠٨).

وتأكيدا منها على غربة الحياة بعيدا عن مدينتها ومعبدها نلمس حسرتها ولواعج شوقها، وعدم شعورها بالراحة بعد أن أُجبرت على الخروج من المدينة تاركة بيت راحتها ألا وهو معبدها، فهي تائهة غريبة يسيطر عليها الألم والبؤس الشديد، إذ نقرأ في المقطع السابع من مرثية اور وبلاد سومر الآتي:

" **يا للبؤس! مدينتي تحولت إلى مدينة غريبة...**

تحول معبدي إلى معبد غريب

يا للبؤس، فصلت عن حظيرتي

أنا بقرة كليمة!

أنا الإلهة ننكال[٤] **أصبحت مثل راعٍ لا حول**

ولا قوة له، عندما انهار السلاح على نعجاتي.

يا للبؤس! أجبرت على الخروج من المدينة

ولم أعد أعرف الراحة.

أنا الإلهة ننكال، أُجبرت على الخروج

من معبدي ولم أعد أعرف مقراً لي" (الشواف، ١٩٩٧، صفحة ٤١٢).

هذا الشعور بالغربة وما يتولد من خوف وذهول وانفصال عن الواقع جراء هول الكارثة قد أبدع الشاعر بتصويره من خلال وصفه لحالة الملك أبي– سين (٢٠٢٨–٢٠٠٤ ق.م) وهو في قصره لا يملك من أمره حولا ولا قوة ينتظر مصيره، وأمام عينيه تدمر مدينته التي كانت عامرة، يذرف الدموع في قصره الذي كان مصدراً للفرح والطمأنينة وحكم القانون.

" وملكهم جالس لوحده دون حراك

أجل! ان ابي– سين يجلس مكتئباً خائفا في القصر

انه يذرف الدمع بمرارة في قصر أفراحه " قصر الحياة"

في حين يحطم "الطوفان" الأرض ويكتسح كل شيء

لكي تدمر المدينة ويدمر المعبد

ويعلو الكذابون على الصادقين

وتسيل دماء الكذابين فوق دماء الصادقين" (علي، ٢٠٠٠، صفحة ٣١٣).

أما حالة شعب اور ومعاناته جراء الاجتياح العيلامي لمدينة اور فقد صورتها المرثية بعبارات مؤثرة زاخرة بالحسرة والألم لتعبر عن معاناة من نجى من الكارثة لكنه أصبح يعيش بعيدا عن مدينته في بلد أجنبي لم يألف العيش فيه لذا شعر بالغربة والبعد عن الوطن، فقد جاء على لسان الإلهة ننكال:

"عصافيري الصغار وجميع طيوري فرت (خائفة)

(آه يامدينتي)، أريد أن أصرخ!

بناتي وأبنائي، مرّغهم التراب

(آه يا أبنائي) أريد أن أصرخ!

يا للبؤس، بناتي في مدينة غريبة

عليهن حمل شعارات أجنبية.

الأبطال، لم يعد ميدانهم يتعرف عليهم

يرتدون ألبسة حُوّلت الى أسمال" (الشواف، ١٩٩٧، صفحة ٤١٠).

إنّ احساس الشاعر بالمعاناة، وتسلط الأعداء على المدينة التي فقدت بهائها بسبب التخريب والتدمير الذي حول المدينة الى أنقاض جعله يحس مدى الاختلاف بين تلك المدينة العامرة قبل تعرضها للغزو وبين حالها بعد تعرضها للهجوم لذا فهي ليس تلك المدينة التي ألف صورتها وبالنتيجة فكل ما فيها غريب ومختلف.

" أيها الإله نانا، أور فقدت وجودها

وأنا لم أعد سيدتها.

هُدّم معبدي، خُربت مدينتي،

على الرغم من كوني السيدة المقدسة

مدينتي أضحت مدينة غريبة

دُمّرت مدينتي، خُرّب معبدي...

فقد تحول معبدي الى معبد غريب" (الشواف، ١٩٩٧، صفحة ٤١١).

كان لتخلي الآلهة عن المدن المدمرة، بل أن تدميرها كان بأمر من الآلهة، جعل العراقي القديم يشعر بغربة روحية وبابتعاد عن الآلهة التي كان من المفترض أن تحقق له الحماية والأمان والطمأنينة فضلا عن ازدهار مدينته بدل خرابها، ومن هنا جاء الأدب العراقي ليعبر عن هذه الحالة، وعن السخط الذي يشعر به العراقي القديم تجاه الآلهة التي لم تكن منصفة في قراراتها من وجهة نظره. فعلى سبيل المثال في مرثية مدينة الوركاء تدمر المدينة بأمر من الآلهة بدعوى أن ضوضاء البشر أقضت مضجعهم وحرمتهم النوم.

" إله الشمس – تجسد للبشر (حرفيا الذي بالشكل البشري) (أصدر حكما)

في محكمة السماء، ولم يشرق ثانية

المدينة تراقب كلما اقتربت روح الشرير gidim(٥)

تنفس بألم، صرخ بمرارة..

مدّ يده، وجلب الرعب الى المكان.

وقد ضرب الإله انليل بقوة وأعلن.

بأن فيضانا مدمرا سف يحدث

وحرب! سوف تكون تجاه... وستكون في الخلف إزالة.

وسيعم النهب، وأن خلفها سوف تنشب فيه النار.

ملامحه ستكون عاصفة هوجاء تحجب السماء والأرض" (الأسود، ٢٠٠٨، صفحة ٧٩،٧٧).

وفي المقطع التالي من مرثية مدينة الوركاء نجد أن أبناء هذه المدينة يلقون باللوم على الآلهة، لأنها أحبت الذهاب الى مدينة أجنبية متخلية عن مدينتها وأهلها على الرغم من أنهم لم يرتكبوا فعلا يستحق العقوبة، ولم يتركوا طقوس عبادتها.

"**وإن سيد المدينة حطم رؤوسا هناك.**

نظر بعيدا عنها وحدق بمحبة إلى أرض أجنبية بدلا منها وإنهم ينتحبون بأصوات عالية؟

الناس ذوو الرؤوس السود الذين أخذوا الطريق الصحيح.

ماذا فعلوا ماذا تركوا؟

إن سيدهم أصبح مجنونا معهم، ويمشي بكل غضب" (الأسود، ٢٠٠٨، صفحة ٦٥).

ويتعزز لدينا شعور العراقي القديم بالغربة الروحية وتشكيكه بصحة القرارات الإلهية عندما نقرأ في قصيدة (العدل الإلهي)[٦]، كيف أنه لم يعد يؤمن بعدالة الآلهة، وأنها أحد أسباب بؤسه وشقائه. الأمر الذي يصل به الى حالة من التجاسر على الآلهة والكفر بها. فهو يشعر بالغربة وهو في وطنه، كيف لا ومن يفترض به أن يقدم له العون وهو الإله كونه كان مؤمنا لم يجده حين احتاج إليه.

" **المعذب: فكرك، يا صديقي، منبع لا يدرك عمقه،**

انه البحر المتلاطم الذي لا ينضب

دعني أسألك، فأصغ لما أقول وتدبر كلماتي:

لقد خذلني التوفيق، وذهبت عني الراحة والطمأنينة.

وهنت قواي، وفقدت النعيم والخير،

وأظلم وجهي من كثرة بكائي وشكاتي..

الصديق: يجازي الآلهة الأتقياء الصالحون في نهاية المطاف...

المعذب:: هل يقدم السبع المفترس الذي يلتهم أحسن اللحم قرابين الى الآلهة؟

والغني الذي كدس الأموال هل قدم للإلهة (مامي) الذهب؟

وأنا هل انقطعت عن تقديم الصلوات والقربين الى إلهي؟

الصديق: أعرف أنك ثابت كالأرض، وتعلم أن طرق الآلهة وقصدها عسيرة الإدراك..

المعذب: ما أشبه فكرك بالريح الشمالية. انه نسيم عليل.

فيا أعز صديق، دعني اقول لك كلمة واحدة:

كثيرون هم الذين لا يلتزمون بعبادة الآلهة ولكنهم ساروا في طريق الفلاح،

في حين أن العابدين الأتقياء فقراء معدمون.

وانا في أيام شبابي كنت أسير وفق ارادة الهي،

وتعلقت بإلهتي في التضرع والصلاة.

ولكني كنت انوء بجر النير في (عمل سخرة) لانفع منها..

الصديق: يا صديقي العارف المستقيم أرى أن أفكارك قد أعوجت وفسدت،

ونبذت الاستقامة، وصرت تكفر في خطط إلهك وطرقه.

بل أنك في سرك صرت لا تتقبل أقدار الآلهة المقدسة.

ان خطط الآلهة المحكمة مثل أعماق السماء لا يدرك.

المعذب: لن أنصاع لأوامر الآلهة،

وسوف أدوس بقدمي على شعائرها" (باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ١٩٧٦، الصفحات ١٥٢-١٥٣).

هناك عامل غاية في الأهمية أسهم في الغربة النفسية والروحية للعراقي القديم تطالعنا به ملحمة جلجامش الا وهو الغربة التي يولدها معرفة الانسان لمصيره المحتوم الذي قدرته له الآلهة وهو الموت، وأن الخلود شيء خاص بالآلهة. فجلجامش البطل الصنديد ذو القوة التي شهد له بها القاصي والداني، والذي ثلثاه إله رأى المصير الذي طال صديقه البطل انكيدو الذي خاض معه المغامرات ومصارعة الوحش خمبابا وقتلهما الثور السماوي، كيف خارت قواه وانتهى مصيره بالموت حين قرر الإله انليل عليه ذلك.

" انكيدو! يا صاحبي، وأخي الأصغر

الذي اقتنص حمار الوحش في النجاد والنمر في الصحارى

تغلبنا معا على الصعاب و أرتقينا أعالي الجبال

ومسكنا بالثور السماوي ونحرناه

قهرنا خمبابا الساكن في غابات الأرز

فأي سنة (من النوم) هذه التي غلبتك وتمكنت منك؟

طواك ظلام الليل فلا تسمعني ولكن (انكيدو) لم يرفع عينيه

فجس قلبه فلم ينبض

وعند ذاك برقع صديقه كا لعروس

وأخذ يزأر حوله كالأسد

وكاللبؤة التي اختطفت اشبالها

وصار يروح ويجيء أمام الفراش وهو ينظر اليه

وينتف شعره ويرميه على الأرض

مزق ثيابه الجميلة ورماها كأنها أشياء نجسة" (باقر، ١٩٨٠، الصفحات ١٢٦-١٢٧).

ولعل مما زاد في غربة العراقي القديم الروحية، والقلق من الموت وعدم السكينة وضع العالم الآخر الذي يصفه انكيدو لصديقه جلجامش بعد أن نزل الى العالم الأسفل لجلب الـ (بكو pukku) والـ (مكو Mukku)[٧] الخاصين بطبل جلجامش اللذان سقطا هناك، وعدم التزامه بإرشادات الأخير لكي لا يمسك به العالم الأسفل ويحتجز هناك. ولكن انكيدو لم يلتزم بما قاله له جلجامش فلم يعد الى عالم الأحياء، وقد فشلت كل محاولات جلجامش لانقاذ صديقه وكل ما تمكن من فعله هو عمل فتحة في العالم الأسفل ليخرج شبح انكيدو ليعانقه بحرارة، وبعد ذلك أخذ جلجامش يستفسر عن وضع العالم الآخر من صديقه انكيدو.

" **أخبرني يا صديقي! أخبرني يا صديقي**

أخبرني عن احوال العالم السفل الذي رأيته!

سوف لن أخبرك، يا صديقي، سوف لن أخبرك

ولكن اذا كان لزاما عليَّ إخبارك عن احوال العالم الأسفل

الذي رأيته فأجلس وابك!

حسن! سأجلس وأبكي

إن جسدي.. الذي لم تلمسه عندما كان قلبك يغمره السرور

يلتهمه الدود الآن كما لو كان ثوبا عتيقا

إن جسدي.. الذي لم تلمسه عندما كان قلبك يغمره السرور

... ويملأوه التراب

فصاح (جلجامش) (يا ويلتاه!) وتمرغ في التراب..." (علي ف.، ٢٠٠٠، صفحة ١٦٧).

ان الغربة النفسية لجلجامش التي اعترته بعد وفاة صديقه انكيدو ودفنه تتضح لنا من خلال وصف الملحمة لحالة الحزن الشديد التي تملكته، وتركه لحياة الرفاهية التي كان يعيشها كونه ملك الوركاء الذي يطاع في ما يأمر به لكنه مع موت صديقه وجد نفسه عاجزا عن تقديم أي عون لصديقه الوفي، وهذا أشعره بالضعف والحزن الشديد على نفسه لأن المصير الذي ينتظره لا يختلف عن مصير صديقه البطل.

" **من أجل انكيدو خله وصديقه**

بكى جلجامش بكاء مرا

وهام على وجهه في الصحارى (وصار يناجي نفسه):

اذا ما متُّ أفلا يكون مصيري مثل انكيدو؟

لقد حلَّ الحزن والأسى بجسمي

خفت من الموت، وها أنا أهيم في البوادي" (باقر، ١٩٨٠، صفحة ١٢٨)

المحور الثاني: الحنين في أدب العراق القديم

الحنين لغةً: من ح ن ن الشوق وتوقان النفس وقد (حنَّ) إليه يَحِنُّ بالكسر (حنيناً) فهو (حانٌّ). و(الحنانُ) الرحمة وقد (حَنَّ) عليه يَحِنُّ بالكسرِ (حنانا). ومنه قوله تعالى: " وحناناً من لَدُنّا". و (الحَنّانُ) بالتشديد ذو الرحمة و (تَحَنَّنَ) عليه تَرَحَّم. (الرازي، مختار الصحاح، صفحة ٦٧).

الحنين اصطلاحا: فهو الشوق وتوقان النفس مع الطرب والتنغيم. وهو يكشف مدى ما يعانيه الإنسان في غربته بعيدا عن وطنه، فالحنين يُرضي شغف النفس، ويُشبع حب الناس لأوطانهم. (الخليلي،

الحنين والغربة في الشعر الأندلسي، صفحة ١٨) أدت الإلهة (انانا= عشتار) دورا سلبيا في علاقتها الزوجيه مع الإله (دموزي= تموز)، فهي التي سلمت حبيبها وزوجها دموزي الى شياطين العالم الأسفل ليكون بديلا عنها في ذلك العالم، ومع ذلك نجد أن الشعراء السومريون والبابليون قد ألفوا مناحات على هذا الإله على لسانها، ويغلب على تلك المناحات طابع الحزن العميق والعاطفة الشديدة (علي ف.، عشتار ومأساة تموز، ١٩٨٦، الصفحات ١٦٨-١٦٩) فهي دائمة الشوق والحنين الى حبيبها الذي عاشت معه قصة حب توجت بالزواج، فنقرأ في أحد هذه المناحات:

" **راح قلبي الى (السهل) نائحا نائحا..**

راح **قلبي الى السهل نائحا نائحا**

راح الى مكان الفتى،

راح الى مكان دموزي،

الى العالم الأسفل، مستوطن الراعي

راح قلبي الى السهل نائحا نائحا

الى المكان الذي ربط فيه الفتى،

الى المكان الذي احتجز فيه دموزي...

راح قلبي الى السهل نائحا نائحا" (علي ف.، عشتار ومأساة تموز، ١٩٨٦، صفحة ١٦٩)

نقرأ في مرثية اور مدى تفجع الإلهة (ننكال)، ومعها سكان المدينة، على مدينتها اور التي أصابها الدمار، وقلبها مملوء بالحنين والأمل بأن مدينتها ستعود كما كانت في يوم من الأيام:

"لقد جعلوا المدينة كُتلا من الأنقاض.

فصارت المرأة تبكي على بيتها المُهدم.

والسيدة تنعى بمرارة معبدها المهدم.

مدينة اور، مسكن الإله (ننا) تهديمُكَ مؤلم.

وليت الناس يستطيعون إعادة بنائك" (الأسود، ٢٠٠٨، صفحة ٤٩).

نلمس المشاعر الجياشة التي تزخر بها مرثية اور وبلاد سومر، فالندب والنواح والأنين فضلا عن الحنين إلى سالف الأيام التي كانت فيها المدينة عامرة يطفح من هذه المرثية، فالشاعر يقارن بين

عهدين، عهد ازدهرت فيه مدينته اقتصاديا واجتماعيا، وعاشت في ظل تنظيم سياسي مستقر يحكمها قانون ينسجم مع تطلعات شعب سومر وبين عهد تحول كل شيء في مدينته إلى خراب، وقد أُسقط بيده فلم يعد له سوى الحنين الى سابق العهد وغير التوجع والتفجع بسبب المأساة التي حلت بشعبه وبلاده.

" أيتها المدينة، كان لك أسم، ولكنه تهدم مع خرابك

أيتها المدينة كانت جدرانك قائمة

لكنك أُبدتِ مع بلادك...

أيتها المدينة، أصبحت طقوسك

قوة العدو وزهوه

والى قوانين العدو حُولت قوانينك" (الشواف، ١٩٩٧، صفحة ٣٩٣).

يبدو أن آلهة المدن التي دُمرت مدنها بسبب العدوان الخارجي، ومغادرة تلك الآلهة مدنها لذلك السبب تحنُّ الى العودة الى مدنها والى معابدها كي تقدم لها الطقوس والقرابين فيه من جديد، وهذه العودة هي بشرى بأن عهدا جديدا قد كُتب للمدينة وهذا ما تطالعنا به مراثي المدن، وهذا المقطع من مرثية مدينة نيبور يشير الى ذلك.

" الى متى يجهد المبنى الآجري عيونه بالدموع والنحيب؟

وحتى الآن سيدك، الجبل العظيم، الإله انليل العظيم في الكون.

أزال النحيب من مبناكم (المبنى الآجري) وحسّن مزاجكم.

الآن، المدينة سيدكم الذي عرض لكم الرحمة والشفقة.

الذي دخل المعبد الحقيقي الذي عانى الكثير من الدمار.

والذي أعادك الى الحزن، فإنه هو بنفسه يَزال.

(كفى) إنه وقت يجب فيه إيقاف النحيب، والرثاء قال لك ذلك بنفسه

نيبور أمر بمصيرك، وجعل فترة الحكم طويلة.

انليل بنفسه أمر اشمي– داكان[٨] أن ايكور تُشرق مثل النهار.

الى ضوء الشمس الساطع حيث جلب النهار هناك (مرة أخرى) لكم.

انليل وننليل أقاما منصة في ايكور" (الأسود، ٢٠٠٨، صفحة ٦٩).

يتمثل حنين العراقي القديم بتوقه العميق في العودة الى الاستقرار والهدوء، واعادة بناء المدينة المدمرة، والمعبد المهدم، واستئناف حياته من جديد في ظل رعاية الآلهة لتنعم المدينة بكل سبل العيش الرغيد مع الأهل والأحبة مع التأكيد على أهمية بقاء العين مفتوحة على من يتربصون به وببلده، وأن يعد لهم سبل المواجهة حتى لا تتكرر المأساة، ففي ملحمة ايرا[٩] نجد، بعد أن قام هذا المحارب بتدمير بابل، أن ايشوم مرافقه يحاول تهدئته مرارا وتكرا حتى نجح في النهاية في ذلك لتبدأ مرحلة جديدة من بابل كمدينة تعج بالحياة ولتستعيد دورها المعروف.

" أيها المحارب! اهدأ واستمع الى كلماتي

ما عليك الآن إلا أن تستريح ونقوم نحن على خدمتك

نحن نعرف جميعا أن لا أحد يقدر على مجابهتك في يوم غضبك

فلما سمعه ايرا أضاء وجهه

وشعت قسماته مثل فجر جديد

ثم دخل في إي– ميسلام (E- meslam)[١٠] واستقر في مسكنه

وعندئذ صاح ايشوم عاليا ونطق بكلام مهم

وبدأ يؤكد القرار المتعلق بسكان أكد المشتتين قائلا:

عسى أن يتكاثر من جديد شعب البلاد المباد

وعسى أن يسير على دروبها القصير والطويل

وأن يصرع الأكدي الضعيف السوتي القوي

وأن يسوق رجل واحد منهم سبعة منهم مثل الغنم

وعسى أن تحيل مدنهم الى خرائب وجبالهم الى قفر

وأن تأتي بغنائمهم الثقيلة الى شوانا (بابل)

وأن تعيد آلهة البلاد الغاضبين الى مساكنهم بأمان

وتنزل في البلاد من جديد الماشية والغلال

وتجعل الجبال تجلب ثرواته والبحر يجلب منتوجاته

والمروج التي سمحت باجتياحها تجلب منتوجاتها

وأن تجعل كل واحد من حكام المدن يجلب جباية باهضة الى شوانا

والمعابد التي سمحت بتخريبها عسى أن ترتفع قممها عاليا مثل الشمس المشرقة

وعسى أن يأتي كل واحد من حكام المدن بهبته الى خازن معبد إي- ساكيلا وبابل" (علي ف.، ٢٠٠٠، الصفحات ١٤٢-١٤٣).

وهذا الحنين لنواحي الحياة المختلفة بكل تفاصيلها من أمن ورخاء ووفرة اقتصادية كان موجودا في الأيام السالفة، لكنها تحولت الى معاناة بسبب العامل الخارجي المتمثل بالعدوان الخارجي الذي لا يجلب سوى الدمار، وتعطل مفاصل الحياة التي من المفترض أن يعيش في ظلها الانسان لكن الغزاة لا يهمهم سوى السلب والنهب والتدمير غير آبهين بالوضع الانساني، فالقوة هي التي تتحدث، وصوت الحرب هو الذي يعلو فيسحق الضعفاء ويأنون تحت مختلف أصناف المعاناة، لذا لا عجب انهم يحنون الى استعادة حياتهم الماضية بهدوئها الأمني واستقراها الاقتصادي.

" **كان القحط شديد الوطأة، ولم يكن ثمة انتاج**

ولم تنظف الأنهر الصغيرة، ولم ترفع عنها الأقذار

وليس ثمة غلة في جميع الأراضي.

ولم ينبت بها سوى الأعشاب الضارة

حينئذ عزم الرب برأي سديد..

لقد جمع كل ما تشتت

كل ما بعثره (كور)

وجهه وسلطه نحو (دجلة)

أخذت المياه العليا تنساب الى المزارع

انه يرى كل شيء على وجه الأرض

وقد سُرَّ كثيرا بما صنعه (ننورتا) ملك الأرض

فأنتجت الحقول مزيدا من الغلة

وأثمرت بساتين النخيل ومزارع الأعناب

وتكدست في الأهراء والتلال

والرب جعل الحزن يُمحّى من على وجه الأرض" (كريمر ص.، ١٩٧١، الصفحات ١٢٧-١٢٨).

ويتمثل حنين العراقي القديم الى الهدوء والسكينة بعيدا عن الحروب والأزمات التي طبعت تاريخه الطويل عندما صور لنا زمنا كان يعيش فيه الجميع بأمان بعيدا عن الأزمات والحروب التي طبعت تاريخه وأنهكته، زمناً يعمه السلام بعيدا عن أي شكل من أشكال التمييز العنصري والديني.

" قديما كان زمن لم يكن فيه أفعى

ولا عقرب

لم يكن هناك ضبع و لا أسد؛

لم يكن هناك خوف ولا رعب:

والرجل لم يكن له خصم...

العالم بأجمعه، والشعوب بتوافق تام(؟)

كانت تمجد انليل بلغة واحدة" (الشواف، ١٩٩٧، صفحة ٣٦٤).

ومما يؤكد حنين العراقي القديم إلى السلام وأمان العيش بعيدا عن الصراعات والحروب التي كلفته الكثير المقطع الحادي عشر من مرثية مدينة نفر الذي يصف فيه الشاعر الأيام المثالية، الخالية من كل ما يعكر صفو العيش، التي أعدها الإله انليل ليس لشعبه حسب بل للبشرية جمعاء، إذ يقول:

" اليوم الذي يبطل فيه إلى الأبد استغلال الانسان

للإنسان ويهاب الابنُ أباه،

يوم يسود التواضع الأرض كلّها

ويكرم الغني الفقير،

يوم يخضعُ الأخ الأصغر إلى أخيه البكر،

يوم يبقى فيه الشباب جالساً

(للاستماع) إلى كلمات الرجل المتعلم،

يوم يبطل فيه إلى الأبد (الصراع) بين

الضعيف والقوي ويسود فيه لطف الوداعة،

اليوم الذي يمكن فيه السفر بأمان (على أية) طريق؟

بعد أن تكون قد أقتُلِعت منها نباتات السوء.

يوم يمكن فيه للرجل السفر أينما يرغب

و (حتى) في الصحراء، حيث...(؟) لا يتعرض لأي خطر،

يوم تختفي عن وجه الأرض جميع الآلام،

ووحده يعمّ النور

اليوم الذي بعد أن تكون قد طُردت فيه الظلمات

من الأرض، تعمّ البهجة جميع المخلوقات الحية" (الشواف، ١٩٩٧، الصفحات ٣٧٦-٣٧٧).

إن الحنين الى الماضي والى أبطاله سمه من سمات البشر، الذين نجدهم يتعلقون بالأبطال ويتغنون ببطولاتهم، ولدينا نص[١١] يطفح بالحنين الى أبطال الأزمنة القديمة جلجامش وانكيدو وهواوا وآخرين غيرهم.

" **مثل لا نهاية السماء، لا يمكن ليدي أن تطالهم**

ومثل أعماق الأرض، لا أحد يعرفهم!

الحياة بكاملها، ليست سوى لمحة بصر

لم تُعطَ للبشر أيام مديدة، هذا هو الحال ولا جدال في ذلك" (الشواف، ديوان الأساطير، ٢٠٠١، صفحة ٤٤١).

من الملاحظ أن النص يشير الى شموخ اولئك الابطال الذين لا أحد يدانيهم في المنزلة، ولا أحد يطاولهم في المجد والعنفوان ولكن الحياة المعدودة الأيام لحياة الانسان هو الحقيقة الجلية التي لا جدال فيها. بعدها ينتقل النص لذكر مفاخر أولئك الأبطال.

"**أين آلولو الذي حكم ٣٦٠٠ سنة؟**

أين الملك ايتانا الذي صعد الى صعد الى السماء؟

أين جلجامش (العظيم) الذي سعى الى

الحياة الأبدية مثل زيوسودرا[١٢]

أين هوّاوا [.....]؟

أين انكيدو الذي شهر في البلاد قوته

أين بازي؟ أين زيزي؟" (الشواف، ديوان الأساطير، ٢٠٠١، صفحة ٤٤١).

في المقطع التالي من النص نجد الحسرة والحنين على أولئك الأبطال الذين لم تنجب الأمهات مثلهم، فهم فلتة من فلتات زمانهم لن تتكرر، وهذا كله يشير الى مدى الاعتزاز بأولئك الأفذاذ والحنين اليهم والى زمانهم العامر بالبطولة والعنفوان.

"أين هم الملوك العظام، الذين فيما مضى

وحتى يومنا هذا:

لم تعد [الأرحام] تحمل مثلهم ولم يولد [مثلهم]!

الحياة بدون بهجة، أليست مماثلة للموت؟

أيها البطل، أنت الذي غمرك بالنعم إلهك

طارد الثور وقم باقتناصه:

كم هو ثقيل الأسى (بعد ذلك)!

مقابل قلب تملؤه البهجة، هناك"

٣٦٠٠ يوم من الحزن" (الشواف، ديوان الأساطير، ٢٠٠١، صفحة ٢٤٢).

تتحدث إحدى الملاحم[١٣] عن البطل (لوكال– بندا) الذي وجد نفسه بعيدا عن أرضه في أرض بعيدة تدعى زابو[١٤]، دون رغبة منه، لذا فقد ألهب الحنين الى مدينته (الوركاء) مشاعره وأحاسيسه ودفعته لإيجاد طريقة تمكنه من العودة الى بلده حيث أهله وأحبته، ولأجل تحقيق مبتغاه عمل على توثيق علاقته بطائر الصاعقة (امدوجد Imdugud)، كونه مقرر المصائر ولا تعصى كلمته من أحد. ووجد أن أفضل الطرق التي توصله الى مبتغاه هو فراخ الطائر (امدوجد)، فأستغل غيابه عن عشه فقدم لفراخه ألذ الطعام وأطيبه كما قام بتزيين وجوه الفراخ بالأصباغ، وزين رؤوسها بالتاج المسمى (شوجُرّا Šugurra)، وعند عودة الطائر الى عشه أبتهج لما صنعه لوكال– بندا؛ وعمل على مكافأة من قام بهذا العمل ومنحه صداقته وعطفه، و تحقق لـ (لوكال – بندا) عودته الى

مدينته بعز وكبرياء، وليتحقق أطمأنانه النفسي الذي كان يعصف به الشوق والحنين (كريمر، ١٩٥٧، الصفحات ٣٤٣-٣٤٤).

وفي نص جاءنا من العصر الآشوري الحديث أطلق عليه الباحثون تسمية (مرثية امرأة)، والنص عبارة عن حوارية بين امرأه فقدت حياتها أثناء عملية المخاض وبين شخص آخر غير معروف. وفي هذا النص نجد هذه المرأة تبث مشاعر الحنين الى حياتها الفانية مستذكرة سعادتها وسعادة زوجها حين كانا معا في الحياة الدنيا وحنينها الشديد لتلك الحياة بكل تفاصيلها الدقيقة.

" كم كنت سعيدة يوم حملت فاكهةً

كنت سعيدة وكذلك كان زوجي

لكن يوم مخاضي، تجهّم وجهي

يوم ولادتي، غشيت عيناي

رفعتُ يديَّ صليت الى بيليت- ايلي

حينما سمعت بيليت- ايلي اعرضت بوجهها عني..

منذ تلك الأيام، عندما كنت مع زوجي

مقيمة مع حبيبي

تسلل الموتُ خلسةً إلى غرفة نومي

أخرجني من بيتي

باعد بيني وبين زوجي

حطَّ قَدمَي في أرضِ اللاعودة" (Livingstone, 2017, p. 110).

ان الغربة التي عاشها جلجامش بعد موت صديقه انكيدو، وخوفه من أن يكون مصيره كمصير صديقه جعلته يشعر بالحنين الى الخلود والى أن يعيش حياة أبدية لا موت فيها مما دفعه للبحث عن الخلود رغم الصعاب التي اعترضت طريقه في محاولة الوصول الى الرجل الذي نال الخلود بسبب العمل المتمثل بانقاذ البشرية من الطوفان الذي سلطه الإله انليل عليهم محاولا القضاء عليهم الا وهو اوتو- نبشتم. وفي الطريق الطويل الى بطل الطوفان يدور هذا الحديث بين جلجامش والرجل العقرب:

" ثم نادى (الرجل العقرب) جلجامش

وخاطب نسل الآلهة بهذه الكلمات:-

ما الذي حملك على هذا السفر البعيد؟

وعلام قطعت الطريق الطويل وجئت عابرا البحار الشاقة العبور؟..

فأجابه جلجامش قائلا:-

أتيت قاصدا أبي، أوتو- نبشتم، باحثا عن الحياة

أبي الذي دخل في مجمع الآلهة

جئت لأسأله عن (لغز) الحياة والموت" (باقر، ١٩٨٠، صفحة ١٣٠).

وعند وصول جلجامش الى ساحل البحر حيث يلتقي بسيدوري صاحبة الحانة، وفي حواره معها تتكشف غربته النفسية العميقة التي جعلته ينفصل عن ملذات الحياة ليكون كل همه الحصول على الخلود كي لا يواجه الموت الذي قدرته الآلهة على البشر، فكله توق الى الحياة الذي يحاول التمسك بها بأي شكل من الأشكال. كما نتبين مشاعر الحنين لصاحبه انكيدو الذي لم يتقبل موته بسهولة.

" إنه (انكيدو) صاحبي وخلي الذي احببته حباً جمّا

لقد انتهى الى ما يصير اليه البشر جميعا

فبكيته في المساء وفي النهار..

فأفزعني الموت حتى همت على وجهي في الصحارى

ان النازلة التي حلت بصاحبي تقض مضجعي

آه! لقد غدا صاحبي الذي احببت ترابا

وأنا، سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين

فيا صاحبة الحانة، وأنا أنظر الى وجهك،

أيكون في وسعي الا أرى الموت الذي اخشاه وأرهبه؟" (باقر، ١٩٨٠، الصفحات ١٣٤-١٣٥).

وتجيبه سدوري بأن عليه أن يتمتع بملذات الحياة الوحيدة التي يعيشها لأن الموت أمر حتمي خطته الآلهة على بني البشر؛ فلا مناص من وقوعه يوما من الأيام. لذا عليه أن يغتنم الفرصة قبل فوات الأوان (حنون، ٢٠٠٦، الصفحات ٢٠٤-٢٠٥). لأن الغربة الحقيقية تتمثل في عدم إبداء

الأهمية للحياة التي نعيشها وإهمال الجانب المشرق منها والتركيز على الجانب المظلم فيها، وهذا ما أدركه جلجامش في النهاية.

لقد أدرك جلجامش أن الخلود الذي طالما سعى اليه، وشغل باله، وكان دائم الحنين اليه لا يمكن أن يناله، فقد أعطي في هذه الدنيا السلطة والقوة والشجاعة والنصر في المعركة لكن الموت سيدركه في النهاية (باقر، ملحمة كلكامش، ١٩٨٠، صفحة ١٨٧)، لكن يمكن أن يحقق مبتغاه بطريقة أخرى الا وهي أن يخلد ذكره بين الأبطال الذين كان يُتغنى بهم وبأفعالهم. وكان الناس يحنون الى أيامهم والى بطولاتهم. ففي النص المعروف بإسم (جلجامش وأرض الحياة) نقرأ على لسان جلجامش الآتي:

" **يا أوتو أريد أن أكلمك فأصغ لكلمتي.**

في أرضي (مدينتي) يموت الرجل وهو حزين القلب

ان الرجل يهلك وقلبه مثقل بالألم

ها أنذا أنظر من فوق الأسوار

فأشاهد هياكل الموتى طافية في النهر

وأنا سيكون مصيري هكذا حقا

والانسان مهما أستطال لا يمكنه أن يبلغ السماء

وبما أن الأجل الموعود لمّا يحل(...)

فأنني عزمت عن أن أدخل أرض الحياة وأخلد أسمي" (باقر، ملحمة كلكامش، ١٩٨٠، الصفحات ١٩٨-١٩٩).

وقد تحقق له المجد الذي جعل الوركاء تتغنى به " **هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي**" (باقر، ملحمة كلكامش، ١٩٨٠، صفحة ٧٣).

تُلقي المراسلات الشخصية الضوء على العلاقات الانسانية بين الأفراد وخصوصا بين الأقارب، فلدينا رسالة أرسلها شخص من مدينة، نفر، كثير السفر يدعى لودينجيرّا (Ludingirra) إلى أمه التي يتحرق قلبها شوقا وحنينا اليه كما وتشعر بالقلق بسبب غيابه عنها، وهذا يظهر من خلال رسالة ذلك الشخص التي تفيض بعبارات و أوصاف جزيلة يمتدح فيها أمه ذات الخصال الجيدة فهي أم مثالية، كما وتعبر عن مدى تعلقه بأمه. وهنا نورد بعض الأسطر من الرسالة.

" أيها الرسول الملكي الدائم الترحال على الطرق،
أود توجيهك الى نفر، لإيداع هذه الرسالة.
قمت بسفرة طويلة
وقلقة هي أمي (؟) لا تستطيع النوم،
وهي في غرفتها التي لم تشهد قط
لفظ كلمة مريرة،
لا تكف عن سؤال جميع المسافرين
عن أخبار حول صحتي.
ضع بين يديها رسالتي هذه
(بين يدي) أمّي التي سوف تبتهج..
اسمها شات– عشتار (Šat– Ištar)
شخصيتها (تطفح) اشراقا..
انها مباركة منذ صباها
وبحيويتها أحسنت الاهتمام ببيت حميها..
إنها نشيطة، ولذا هي تضاعف الممتلكات
وهي المحبوبة والمعزّزة والمليئة الحياة،
هي الحمل وهي القشدة اللذيذة والعسل
والزبدة (التي تسيل من القلب)..
أمي هي نور الأفق الشديد الإضاءة،
إنها وعلة الجبال
نجمة الصباح التي تتألق..
أمي هي المطر في فصله (الملائم)، انها
الماء (محيي) الحب المدفون
انها حصاد وفير، شعير فائق الجودة

انها بستان رخاء مليء بلذائذ (الثمار)..

انها بلح دلمون الشديد الحلاوة" (الشواف، ديوان الأساطير، ٢٠٠١، الصفحات ١١٩-١٢٢).

ويستمر الابن بوصف أمه بأجمل وأطيب الأوصاف، ويبدو أن حب الابن الشديد لأمه فضلا عن الشوق والحنين اليها بسبب البعد الطويل عنها ساهما في صياغة الرسالة صياغة أدبية بديعة وبلغة بليغة.

نتائج البحث

توصلت الدراسة الى النتائج الآتية:

١- أنتج العقل العراقي أدبا عالج مشكلات معقدة، ومنها محاولته سبر أغوار النفس البشرية وبيان المعاناة التي تعترضها، وما يعتريها من مشاعر جياشة تتأثر بالظروف التي تحيط بها في خضم الحياة وتفاصيلها المختلفة.

٢- عانى العراق القديم من ظروف عصيبة في بعض صفحات تاريخه القديم عكسها لنا الأدب العراقي القديم مما يدل على أن ذلك الأدب كان مصداقا لهموم العراقي القديم فضلا عن أنه يشير الى البعد التاريخي لذلك الأدب فهو يعكس واقعا تاريخيا في الكثير من جوانبه.

٣- ان التجارب الانسانية من ألم وحزن وغربة وشوق وحنين وغيرها التي سطرها قلم الأديب العراقي القديم يبدو أنها نبعت من مشاهداته أو ما وصل اليه من أخبار عن الأحداث التي عاشها أبناء بلده فجاء وصفه لتلك المشاعر معبرا، في كثير من الأحيان، عن الشعور الجمعي رغم وجود الحالات الفردية بدون أدنى شك.

٤- ساهمت الغزوات الخارجية التي تعرض لها العراقي القديم في شعور العراقي القديم بالغربة الروحية والنفسية فضلا عن المكانية حين تدمر مدنه وتنتهك معابد آلهته ويؤخذ أسيرا بعيدا عن بلده الأمر الذي جعله دائم الحنين الى العودة الى موطنه والى اعادة بناء ما دمره العدوان الأجنبي.

٥- ألقى العراقي القديم في سورة غضبه باللوم على الآلهة التي قررت تدمير مدنه ومعها حياته المستقرة، ووصل به الحد الى التجاوز على الآلهة و تزعزع ايمانه بها لكن مع ذلك نجد أن نصوص أخرى وخصوصا أدب الصلوات التي نجد فيها حنينا الى الآلهة فضلا عن مراثي المدن التي ذكرت

تمنيات العراقي القديم بزوال غضب الآلهة وعودتها الى المدينة المدمرة كونها الخطوة الأولى في اعادة بناء المدينة واعمارها.

٦- شكل الموت هاجسا لدى الجنس البشري، والعراقي ليس استثناءً، وقد باءت محاولات جلجامش بالفشل في طريق البحث عن الخلود، لكنه توصل في النهاية إلى حقيقة مفادها أن الخلود ليس فقط ديمومة الحياة لكن يمكن للإنسان أن يخلد عن طريق ما يصنعه من انجازات تجعل أبناء وطنه يوقرونه ويحنون الى أيامه ويتغنون بإنجازاته الفذة.

٧- أفرزت الغربة والحنين مواضيع عكست تجارب إنسانية غاية في الأهمية عن الحياة والموت، والأسر بعيدا عن الوطن، والعلاقة مع الآلهة، وهي بهذا تعبر عن المشاعر العميقة للإنسان في مواجهة فقد الأحبة والبحث عن الذات والخلود.

الحواشي التعريفية

(١) اسطورة انانا وجبل ايبخ: تتحدث هذه الأسطورة عن عزم الآلهة على فرض سيطرتها على جبل ايبخ الذي يرمز هنا الى المنطقة الشمالية الشرقية المحاذية لبلاد سومر والت كانت تسكنها أقوام معادية. ينظر:

علي، فاضل عبدالواحد، سومر اسطورة وملحمة، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ٢٠٠٠)، ص١٠١.

(٢) ننكال: الهة سومرية وهي زوجة إله القمر (ننا)، وقد عبدت مع زوجها في مدينة اور.

(٣) الإله انليل

(٤) يرد الاسم في المرجع المقتبس منه النص بصيغة جاشان- كال.

(٥) gidim: ويرادفها في الأكدية etemu وهو يمثل روح الشخص الميت في العالم الأسفل الذي يجب أن يسترضى و يوقر. ينظر:

الأسود، حكمت بشير، أدب الرثاء في بلاد الرافدين، دار الزمان للطباعة والنشر، (دمشق، ٢٠٠٨)، ص٧٧ حاشية (٣).

[٦]() قصيدة العدل الإلهي: تصنف هذه القصيدة ضمن أدب الحكمة، وقد نظمت على شكل حوار بين رجل معذب وصديقه الحكيم، وهي تتألف من سبعة وعشرين دورا كل منها يحتوي على أحد عشر بيتا شعريا، ويعتقد أن تاريخ تدوينها يعود الى العصر الكشي. نظر:

علي، فاضل عبدالواحد، سومر اسطورة وملحمة، ص٢٤٧.

(٧) بكو ومكو: يفترض الاستاذ كريمر أن الـ (بكو) هو الطبل الذي صنعته (انانا) من القسم الأسفل لشجرة الهولوبو (ربما شجرة الصفصاف)، ومن لبها صنعت الـ (مكو) الذي يحتمل أنه عصا الطبل وقدمتهما هدية الى جلجامش تكريما له على شهامته ومروءته. ينظر: كريمر، الأساطير السومرية، ترجمو يوسف داود عبدالقادر، جمعية المترجمين العراقيين، (بغداد، ١٩٧١)، ص٥٨.

[٨]() اشمي –داكان: رابع ملوك سلالة ايسن الأولى (١٩٥٤– ١٩٣٥ ق.م)

(٩) ملحمة ايرا: جاءتنا هذه الأسطورة مدونة باللغة البابلية على خمسة ألواح، تدور أحداثها حول إله الطاعون والأمراض وإله الحرب والصيد الذي شبه بالإله نركال إله العالم الأسفل و بـ (كيرآ Gerra) إله النار الذي عزم على تدمير مدينة بابل وأهلها، ويرجع تاريخها الى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد. ينظر:

علي، فاضل عبدالواحد، سومر اسطورة وملحمة، ص ص١٢٧– ١٢٨.

(١٠) إي– ميسلام: معبد الإله نركال = ايرا في مدينة كوثا. ينظر

لابات، رينيه، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، ترجمة الاب البير ابونا و وليد الجادر، (بغداد، ١٩٨٨)، ص١٤٨.

(١١) عثر على هذ النص في ايمار (مسكنة السورية) وفي سبار وأوغاريت ضمن نشرة ثنائية اللغة كتبت بالسومرية والأكدية، وهذا النص ذو الأصل السومري عبارة عن صلاة من أجل الملك، الذي ربما يكون ابي– ايشوخ (١٧١١–١٦٨٤ ق.م). ينظر:

الشواف، قاسم، ديوان الأساطير، دار الساقي، (لبنان، ٢٠٠١)،ج٤، ص٤٤٠.

(١٢) زيوسودرا Zi-U-Sud-ra بطل الطوفان السومري

(١٣) يُطلق الاستاذ كريمر على هذه الملحمة تسمية (لوكال- بندا واينمركار)، ويشير الى انها تربو على اربعمائة سطرا، أغلبها في حالة جيدة، ومع ان هناك نقصا قليلا فيها الا ان معنى اغلب فقراتها لايزال غامضا. ينظر:

كريمر، صموئيل نوح، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (بغداد، ١٩٥٧)، ص٣٤٣.

(١٤) زابو Zabu: وهي منطقة تجاور بلاد عيلام الواقعة في الجنوب الغربي من ايران الحالية. ينظر: الشواف، قاسم، ديوان الأساطير، دار الساقي، (بيروت، ٢٠٠١)، ج٤، ص٤٧٨.

المصادر والمراجع

١- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، (لبنان، ١٩٨٦).

٢- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين (ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، (ب، ت)، ج٢.

٣- الأسود، حكمت بشير الأسود،أدب الرثاء في بلاد الرافدين، (دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق، ٢٠٠٨).

٤- باقر، طه، مقدمة في أدب الراق القديم، (بغداد، ١٩٧٦).

٥- باقر، طه، ملحمة جلجامش، ط٤، دار الرشيد للنشر، (بغداد، ١٩٨٠).

٦- جاكبسون، ثوركيلد وآخرون، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٨٠).

٧- حنون، نائل، ملحمة جلجامش، دار الخريف للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق، ٢٠٠٦).

٨- الخليلي، مها روحي ابراهيم، الحنين والغربة في الشعر الأندلسي "عصر سيادة غرناطة ٦٣٥-٨٩٧ هجرية"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠٧.

٩- رينيه، لابات، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، ترجمة الاب البير ابونا و وليد الجادر، (بغداد، ١٩٨٨).

١٠- الشواف، قاسم، ديوان الأساطير، دار الساقي، (بيروت، ١٩٩٦)، ج١.

١١- الشواف، قاسم، ديوان الأساطير، دار الساقي، (بيروت، ١٩٩٧)، ج٢.

١٢- الشواف، قاسم، ديوان الأساطير، دار الساقي، (بيروت، ١٩٩٩)، ج٣.

١٣- الشواف، قاسم، ديوان الأساطير، دار الساقي، (بيروت، ٢٠٠١)، ج٤

١٤- كريمر، صموئيل نوح، من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (بغداد، ١٩٥٧).

١٥- كريمر، صموئيل نوح، الأساطير السومرية، جمعية المترجمين العراقيين، (بغداد، ١٩٧١).

١٦- عبد القادر عبد الحميد زيدان، الغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء، التمر الإسكندرية، (د ت).

١٧- علي، فاضل عبدالواحد، عشتار ومأساة تموز، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٨٦).

١٨- علي، فاضل عبدالواحد، سومر اسطورة وملحمة، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد،٢٠٠٠).

١٩- هروشكا، بوهوسلاف وآخرون، (الأساطير في حضارة وادي الرافدين، ترجمة عصام عبداللطيف احمد، (بغداد، ٢٠٠٦).